المقدمة(*)

فى اللحظات الحرجة التى تمر بها الأمة، تعصف المشكلات والأزمات بكل الجماعات الفرعية المشكِّلة لها. ولكن الجماعات الأقل عددا تستشعر أزماتها بحدة أكثر، وترى أحيانا أنها الوحيدة التى تمر بأزمة. ومع تصاعد حالة التراجع الحضارى التى تمر بها الأمة، وتزايد حدة الاستبداد السياسى لدى معظم الأنظمة العربية - ومنها النظام المصرى الحاكم - ومع تزايد الضغوط الخارجية، والأصابع الخارجية، التى تعبث بوحدة الأمة، وتحاول التدخل فى عقل الأمة ووجدانها؛ مع كل هذه المتغيرات التى شكلت مشهد الدخول فى القرن الحادى والعشرين، أصبحنا فى حالة من الاضطراب، التى قد تسبق التغيير والإصلاح، أو تسبق الوقوع الكامل فى فخ الهيمنة الخارجية، أو تسبق الفوضى الشاملة. وهى فى كل الحالات لحظة تغير تاريخى، أى مرحلة انتقالية.

وفى المراحل الانتقالية، تتزايد موجات الغضب والتوتر لدى الجماعات الأقل عددا، فالمصير يتغير، وربما تتزايد مشكلاتهم فى الغد،

(*) نشرت أجزاء من هذا الكتاب فى صحيفة الأسبوع القاهرية.

أو يتحقق لهم وضع أفضل. ومع تزايد الاحتقان الذى يتضخم بسبب طبيعة المرحلة الانتقالية، وتزايد الطموح للجماعة الفرعية بسبب حالة التغير الحادثة، نصبح أمام جماعة فرعية فى حالة حراك ونشاط ملحوظ، ولكنه كثيرا ما يكون نشاطا غير منظم أو عشوائيا، وأحيانا ما يكون دفعات غضب، بدلا من أن يكون تصورًا جديدًا لمستقبل الأمة كلها.

والأقباط فى مرحلة مخاض، كجماعة فرعية من الجماعات الأساسية المشكِّلة للأمة العربية، بل والأمة الإسلامية كلها. ومع تجربة حاضرة فى الوعى القبطى، عانى فيها الأقباط من مشكلات خاصة بهم، ومع المعاناة من المشكلات العامة والأزمات الطاحنة التى مرت بها الأمة، والتى يدركها الأقباط أحيانا بأنها مشكلات تخصهم أيضا، أو يرون أن وقعها عليهم أكبر نظرا لحجمهم العددى؛ مع كل هذا يتفجر الاحتقان لدى الأقباط، مثل كل جماعة فرعية تشعر بأن وجودها مهدد.

ولقد أصبح السلوك القبطى فى مطلع القرن الحادى والعشرين ـ قرن التحولات التاريخية الكبرى ـ متجها للتعبير عن كل التجربة القبطية، وكأنه حالة من الغضب التاريخى التى تتجاوز اللحظة الراهنة، بل تتجاوز المشكلات الواقعية الراهنة. ولهذا أصبح موقف الأقباط أو الجماعة القبطية بكل تياراتها ـ وكذلك موقف المؤسسة الدينية القبطية ـ عاملا من العوامل المؤثرة على صورة المستقبل، ليس لمصر فقط، بل نقول لكل الأمة العربية والإسلامية. فموقف الجماعة القبطية ـ كغيرها من

الجماعات الفرعية المشكلة للأمة العربية والإسلامية، خاصة الجماعات الأقل عددا، وخاصة الجماعات التى عانت من مشكلات فى ظل الأنظمة العربية ـ سيكون رقما مهما ضمن صراعات الاستبداد الداخلى والهيمنة الخارجية ومشاريع الإصلاح المحلية. وبالتأكيد فإن موقف الأقباط سيؤثر على الأمة، كما سيؤثر على الأقباط. لهذا أصبح علينا أن نحاور المواقف القبطية، ونحاول معرفة دلالة ما تقدمه تلك المواقف للأقباط من حلول وتصورات، وتأثير ذلك على مستقبلنا جميعا، فاللحظة الراهنة لحظة فاصلة.

د. رفيق حبيب

يونيو ٢٠٠٥م

***